فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها، وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة، حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه.

أما الأُمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي فمن أهمها التهجم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، ومنها: حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة، ومنها: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، ومنها: القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل، ومنها: السير مع الهوى والاستحسان.

وبعد هذا فاعلم أن أكثر السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ قد أجازوا تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد.

مناهج المفسرين بالرأي

يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره، وأن يَتَذَرَّعَ بكل العلوم التي ذكرها الإمام الحبر البحر ذي البيان أبو حيان في مقدمة تفسيره هنا؛ ليكون قد أصاب المراد أو كاد.

أولاً: أن يطلب المعنى من القرآن، فإن لم يجده طلبه من السنة، لأنها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله، وشاهدوه حين نزل، فوق ما امتازوا به من علم وعمل «وخير ما فسرته بالوارد».

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي:

١ ـ البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق، ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم.

٢ ـ إرداف ذلك بالكلام على التركيب من جهة الإعراب والبلاغة، على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية.

٣ ـ تقديم المعنى الحقيقي على المجازي؛ بحيث لا يصار إلى المجاز إلاّ إذا تعذرت الحقيقة.

٤ ـ ملاحظة سبب النزول، فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد؛ كما سبق في مبحث أسباب النزول.

٥ ـ مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها ببعض.

٦ ـ مراعاة المقصود من سياق الكلام.

٧ ـ مطابقة التفسير للمفسر من غير نقص ولا زيادة.

٨ ـ مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون، وسنن الاجتماع، وتاريخ البشر العام، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن.

٩ ـ مطابقة التفسير لما كان عليه النبي ﷺ في هديه وسيرته؛ لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته.

١٠ ـ ختام الأمر ببيان المعنى المراد والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية.

١١ ـ رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال وهو ما يأتي:

قال السيوطي في «الإتقان» ما نصه: «وَكُلٌّ لفظ احتمل معنيين فصاعداً، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأي.

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره، وإذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما لغوية أو عرفية وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وإن كانت في أحدهما عرفية والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى.

وإن اتفقا في ذلك أيضاً، فإن تنافى اجتماعهما، ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كالقرء للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما؛ بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه.

وإن لم يظهر له شيء، فهل يتخير أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف؟ أقوالٌ، وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلا إن دَلَّ دليلٌ على إرادة أحدهما أ هـ».

أَهَمُّ كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ الْجَائِزِ

نذكر منها مجرد أمثلة ومن أراد المزيد فليرجع إلى: «التفسير والمفسرون» لشيخنا الشيخ الذهبي، «ومناهل العرفان» وغيرهما.

١ ـ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ:

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي البكري، الطبرستاني، الرازي، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤هـ أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة، وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ٦٠٦هـ ست وستمائة من الهجرة بالري[١].

٢ ـ أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ، وَأَسْرَارُ التَّأْوِيلِ:

ومؤلفه هو: الشيخ الإمام، قاضي القضاة، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، البيضاوي، الشافعي[٢]، أصله مِن «شيراز»؛ في جنوب إيران، وبها كانت نشأته العلمية الأُولى، وبها تخرج في الفقه والأُصول، والمنطق، والحكمة، والكلام والأَدب، وبرع في الأُصولين، وضم علوم العربية والأَدب إلى علوم الشريعة والحكمة، وَلي قضاءَ «شيراز» مُدَّةً، وكانت وفاته بـ«تبريز» خمس وثمانين وستمائة، وقيل: سنة إحدى وتسعين وستمائة، ومن مؤلفاته القيمة: كتاب «المنهاج» وشرحه في أُصول الفقه، وكتاب: «الطوالع» في أُصول الدين، و«أَنوار التنزيل»، و«أَسرار التأْويل»، وهو ما نحن بصدده وغيرها.

وتفسيره جامع بين التفسير والتأْويل على مقتضى القواعد اللغوية والشرعية، وهو متأَثر في طريقته في بيان الأَلفاظ، والتراكيب، ونكت البلاغة ـ بتفسير الكشاف للزمخشري، ولكنه قرر فيه الأَدلة على أُصول أَهل السنة، وهو في هذا متأَثر بالإمام فخر الدين الرازي.

٣ ـ الْجَامِعُ لأَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَالْمُبَيِّنُ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الْقُرْآنِ:

ومؤلفه هو، الإمام: أَبو عبد الله، محمد بن أَحمد بن أَبي بكر بن فرج الأَنصاري، الخزرجي الأَندلسي، القرطبي[٣]، المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماءِ العارفين

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام ٧/ ٢٠٣، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢/ ٢٣، وفيات الأعيان ٣/ ٣٨١، لسان الميزان ٤/ ٤٢٦، البداية والنهاية ٣/ ٥٥، طبقات الشافعية ٥/ ٣٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١٩٨، مفتاح السعادة ١/ ٤٤٥، مرآة الجنان ٤/ ٧، مرآة الزمان ٨/ ٣٥٣.

(٢) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (١/ ٢٤٢)، البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٩)، بغية الوعاة (٢/ ٥٠)، شذرات الذهب (٥/ ٣٩٢)، طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ١٥٧)، مرآة الجنان (٤/ ٢٢٠)، مفتاح السعادة (٢/ ١٠٣)، هدية العارفين (١/ ٤٦٢، ٤٦٣).

(٣) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (٢/ ٦٥)، الديباج المذهب (ص ٣١٧)، شذرات الذهب (٥/ ٣٣٥)، طبقات المفسرين للسيوطي (ص ٢٨)، نفح الطيب (٢/ ١١٠)، هدية العارفين (٢/ ١٢٩)، الوافي بالوفيات (٢/ ١٢٢).

الورعين، الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أُمور الآخرة، كانت أَوقاته كلها معمورة مشغولة ما بين عبادة وتأليف، وكانت وفاته سنة إحدى وسبعين وستمائة ومن مؤلفاته كتاب: «الأَسنى في شرح أَسماءِ الله الحسنى»، وكتاب: «التذكار في أَفضل الأَذكار»، وكتاب: «شرح التقصي» وغيرها.

وتفسير القرطبي من أَجلّ التفاسير وأَعظمها نفعاً، أَسقط منه القصص والتواريخ، وذكر عوضاً عنها أَحكام القرآن بتوسع، حتى حاف بها على التفسير، واستنباط الأَدلة وذكر القراءات والإِعراب والناسخ والمنسوخ.

٤ ـ لُبَابُ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ:

مؤلف هذا التفسير: هو علاء الدين أبو الحسن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيمي، البغدادي، الشافعي، الصوفي، المعروف بالخازن[1]، توفي سنة ٧٤١هـ (إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة.

٥ ـ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ لأَبِي حَيَّان:

ومؤلفه هو: الإمام: أَثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، الغرناطي، الحياني، الشهير بأَبي حيان[2]، ولد سنة أَربع وخمسين وستمائة من الهجرة، وتوفي سنة أَربع وخمسين وسبعمائة.

كان ـ رحمه الله ـ ملمًا بالقراءات متواترها، وصحيحها، وشاذّها؛ كما كان على جانب كبير من العلم باللغة وآدابها، والعلم بالنحو والصرف حتى صار إماماً فيهما، وذا رأي معتبر في مسائلهما؛ ولذلك غلب عليه في تفسيره: الإكثار من النحو، والصرف، واللغة ـ كما أَسلفت.

وله مؤلفات منها: «غريب القرآن في مجلد»، و«شرح التسهيل» وهو كتاب جليل، وكتاب «البحر المحيط»؛ في التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن، وقد عكف على تأليفه لما نصب مدرساً للتفسير في قبةِ السلطان الملك المنصور، وفي دولة ولده الملك الناصر؛

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٩٧، الأعلام ٥/ ٥، معجم المطبوعات ٨٠٩.

(٢) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦)، بغية الوعاة (١/ ٢٨٠)، البدر الطالع (٢/ ٢٨٨)، حسن المحاضرة (١/ ٥٣٤)، الدرر الكامنة (٥/ ٧٠)، ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٢٣)، ذيل العبر (ص ٢٤٥)، طبقات الشافعية للسبكي (٦/ ٣١).

وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة، وقد خطا سنه نحو السابعة والخمسين من عمره المبارك.

وقد اعتمد أبو حيان في تفسيره على تفاسير مَن تقدمه: ولا سيما تفسير الإمامين الجليلين: أبي القاسم، محمود بن عمر الزمخشري، وأبي محمد، عبد الحق، المعروف بابن عطية، وعلى ثقافته اللغوية والنحوية والصرفية والأدبية، التي يظهر أثرها واضحاً في كتابه، وهو من كتب التفسير بالرأي والاجتهاد الممدوح.

وكتاب التفسير لأبي حيان لم يخل كغيره من كتب التفسير من ذكر الروايات المأثورة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين.

٦ ـ السِّراجُ المُنِيرُ في الإعانةِ على معرفةِ بعضِ مَعَانِي كلامِ رَبُّنَا الحكيمِ الخَبِير:

ومؤلفه هو: الشيخ العلامة: شمس الدين، محمد بن أحمد الشربيني، الشافعي الخطيب[1]، نشأ بالقاهرة، وعلى شيوخ عصره أخذ، ولما رأوه أهلاً للفتوى، والتدريس، أجازوه بهما، فدرس وأفتى، وانتفع به خلق كثير.

وقد كان ـ رحمه الله ـ على جانب من الصلاح، والورع، والزهد، وكثرة العبادة، وكان يعتكف طوال شهر رمضان من كل عام، توفي عصر يوم الخميس الثاني من شعبان سنة ٩٧٧ هـ، سبع وسبعين وتسعمائة هجرية.

ومن مؤلفاته: «شرح كتاب المنهاج»، و«شرح كتاب التنبيه»، و«السراج المنير» في التفسير.

وهو: تفسير وسط بين الإطناب والإيجاز، اقتصر فيه على أصحِّ الأقوال غالباً، ولم يذكر من الأعاريب إلاَّ ما كانَتِ الحاجةُ ماسَّة إليه، اعتمد فيه صاحبه على تفاسيرِ مَنْ سبقه؛ كالزمخشريِّ، والبيضاويِّ، والبغوي، والرازيِّ، وغيرهم، وقد ينقل فيه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف، كما التزم فيه: ألاَّ يذكر من الأحاديث إلا صحيحها، وحسنها، دون ذكر الضعيف والموضوع؛ ولذلك: يتعقب الزمخشريَّ، والبيضاوي، في ذكرهما للحديث الموضوعِ الطويلِ في فضائل السور: سورة، سورة، كما ينبه على الأحاديث الضعيفة إن روى شيئاً منها في تفسيره[2].

---

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام (٦/٦)، شذرات الذهب (٨/ ٣٨٤).

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٣٣٨ وما بعدها.

٧ ـ إِرشادُ العَقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزَايا القرآنِ الكَرِيمِ:

ومؤَلِّفُهُ هو: الإمام، القاضي، المفتي، أَبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى[1]، ولد سنة ٨٩٣ هـ ثلاث وتسعين وثمانمائة من الهجرة، بقرية قريبة من القسطنطينية، ونشأ في بيت عرف بالعلم، والفضل، والدين، تتلمذ على والده، وغيره من العلماء. وعلَّ من معينه بعد نهل، حتى صار عَلَماً من أَعلام العلم، تولَّى التدريس مدة، ثم ولي القضاءَ، وصار يتنقل فيه من بلد إِلى بلد، حتى انتهى به الأَمر إِلى الإِفتاءِ، وكان أَبو السعود عالماً، أَديباً، متمكِّناً من اللغات الثلاث: العربية، والفارسية، والتركية، وقد مكنت له معرفته بهذه اللغات الاطلاع على الكثير من الكُتُب التي أُلفت بها، فاكتسب علماً غزيراً، ولم يدع له التدريس، وولاية القضاءِ، والتنقل بين البلاد ـ مجالاً للتأليف، فلم يترك لنا إِلا تفسيره هذا، وبعض حواش أُخرى، على «تفسير الكشاف»، وعلى «شرح العناية على الهداية»، وهي ناقصة، وبعد هذه الحياة العلمية الحافلة توفي بالقسنطينية، في أَوائل جمادى الأُولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة، ودفن بجوار الصحابي الجليل: أَبي أَيوب الأَنصاري، فرضي الله عنه، وأَرضاه.

واشتغل العلاَّمة أَبو السعود في حياته بتدريس الكتابَيْن المشهورَيْن: الكَشَّاف، وتفسير البيضاوي، حتى في الأَوقات التي كان يخرج فيها مع السلطان سليمان القانوني غازياً، كان يشتغل بالتدريس لطلبته الذين كانوا لا يفارقونه، وقد كانت نفسه تَتُوقُ إِلى تفسير جامع بين تفسير الكشاف، وتفسير البيضاوي، وأَن يضيف إِليها ما اكتسبه من غيرهما من الكتب، ومن الفُهُوم التي فَتَحَ الله بها عليه في تَفْسِيرِ القرآن حتى حَقَّقَ الله هذه الأُمنية في آخر حياته، فكانَ ثمرة ذلك هذا التفسير العظيم الذي اشتهر بشهرة صاحبه، وعكف أَهل العلم من يومها على دراسته، وسماه: «إِرشاد العقل السليم، إِلى مزايا القرآن الكريم» ولكنَّه خلَّصه من اعتزاليَّاتِ الزمخشريّ، ونهج فيه منهج أَهل السنة.

ومن أَهم مميزات هذا التفسير: أَنه خَالٍ من الاستطرادات والتوسُّع في ذكر الأَحكام الفقهية والنحوية، ويكاد يكون خالصاً للتفسير، وقد عُنِيَ فيه عنايةً بالغةً بإِبراز وجوه البلاغة وأَسرار الإِعجاز في القرآن الكريم، ولا سيَّما في «باب الفصل والوصل»، و«وجوه المناسبات بين الآيات».

٨ ـ رُوحُ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَالسَّبْعِ الْمَثَانِي:

ومؤلفه هو: خاتمة المحققين، وعمدة المدققين، وإمام المفسرين، أَبو الثناءِ: شهاب

---

(١) ينظر ترجمته في الأعلام (٧/ ٥٩)، شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨)، الفوائد البهية ٨١.

الدين، السيد الإمام، محمود بن عبد الله الآلوسي[1] البغدادي، الحنفي، مفتي بغداد وعالمها في القرن الثالث عشر الهجري.

ولد سنة ١٢١٧ سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة، في جانب الكرخ من بغداد.

نبغ في العلوم من صغره، وأخذ عن كثير من فحول علماءِ عصره، منهم: والده، والشيخ خالد النقشبندي، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة، وقد تتلمذ عليه كثيرون، وتخرج على يديه بعض العلماءِ الفضلاءِ من بلاد مختلفة، ولما تولى الإفتاء شرع يدرس كل العلوم في داره؛ بجوار جامع الشيخ عبد الله العاقولي بالرصافة، وقد ساعده على ذلك: نبوغه في علوم شتى، وجمع إلى العلم النقلي والعقلي ـ الأدب وفنونه، فمن ثم عرف بجزالة التعبير، وسلالة الأسلوب، وحسن التصرف في القول، وبروحه اللطيفة الفكهة، ومن تعبيراته اللطيفة التي لا تخلو من الفكاهة: تسميته للحروف الزائدة بأنها: «سيف خطيب»، وعن النكات البلاغية بأنها: «كالوردة، إنْ دعكتها أزلت ما فيها من رائحة وجمال».

وتفسير «روح المعاني» خير تفسير، وأجمعه، وأوفاه، وقد جمع فيه خلاصة كل كتب التفاسير قبله وحواشيها، ولا سيما حاشية: تفسير الكشاف، وحاشية الشهاب الخفاجي، على تفسير البيضاوي، وقد حل بعض رموزها، وعباراتها الخفية التي استعصى فهم المراد منها على العلماء، وله استدراكات قيمة، وتعقبات دقيقة لمن سبقه من العلماءِ.

وكثيراً ما يدلي برأيه بين الآراء؛ فهو ليس مجرد ناقل، بل له شخصيته العلمية البارزة، وأفكاره النيرة، وليس في تفسيره ما يؤاخذ عليه، إلا كثرة الاستطرادات، والتوسع فيما يستطرد إليه؛ حتى يكاد يغرق القارىء لكتابه في بحر هذه الاستدراكات، ولو أن أحداً نزع ما استطرد إليه من كتابه، لجاءت في رسائل كثيرة؛ وكذلك: ذكره للتفسير الإشاري، فليس ثمة ما يدعو إليه، ولعله فعل ذلك لنزعة تصوفية، وليجيءَ كتابه جامعاً لكل الألوان التفسيرية، ومرضياً لجميع الأذواق.

---

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام (٧/ ١٧٧)، أعيان البيان ٩٩، أعلام العراق ٢١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

منهجنا في التحقيق

اتبعنا في تحقيق الكتاب ما يلي:

أولاً: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها.

ثانياً: تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب، مع وضع كتاب «الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» لابن حجر مبدوءاً بـ «قال الحافظ: . . . .» وكذا استعنا بتخريج الزيلعي على الكشاف.

ثالثاً: تخريج الشواهد الشعرية وتوثيقها مع وضع كتاب «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف» للشيخ محمد عليان.

رابعاً: وضع تعقبات السمين الحلبي في الدر المصون على الكشاف ودفعها.

خامساً: توثيق بعض الآثار الواردة في الكتاب.

سادساً: التعليق على بعض المسائل البلاغية في الكتاب.

سابعاً: تراجم لبعض الرواة.

ثامناً: شرح بعض الألفاظ الغريبة.

تاسعاً: وضع كتابي: «الانتصاف» للإمام أحمد بن المنير الاسكندري، وكتاب: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي.

عاشراً: وضع مقدمة للكتاب.

الحادي عشر: وضع فهارس عامة للكتاب.

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولى: وهي المحفوظة بمكتبة الأحقاف وتقع تحت رقم (٢٦٠) تفسير، في مجلدين، وعدد أوراقهما (٢١٥)ق، (٢٧٧)ق.

النسخة الثانية: وهي المحفوظة بالمكتبة الأزهرية تحت رقم (٣٤٠) تفسير، وعدد أوراقها (٢٨٣)ق.

النسخة الثالثة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩٧) تفسير طلعت في مجلدين، وعدد أوراقهما (٣٩٥)، (٤٧٧)ق.

النسخة الرابعة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٨٨) تفسير، في مجلدين، وعدد أوراقهما (٢٧٣)، (٦٠٢)ق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزّله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مُفتتحاً، وبالاستعاذة مختتماً، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً؛ وفصله سوراً وسوّره آيات، وميز بينهنّ بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدىء مبتدع، وسمات منشىء مخترع؛ فسبحان من استأثر بالأوّلية والقِدم، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم؛ أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببينات وحجج، قرآنا عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم؛ على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء؛ ولم ينبض[1] منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط في المضادّة والمضارّة، وإلقائهم الشراشر[2] على المعازة والمعارّة، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط؛ إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر؛ وقد جرّد لهم الحجة أوّلاً، والسيف آخراً، فلم يعارضوا إلا السيف وحده، على أنّ السيف القاضب مخراق لاعب إن لم تمض الحجة حدُّهُ؛ فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب[3]، وأنّ الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب.

---

(١) قوله: «ولم ينبض» أي يتحرك كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «الشراشر» في الصحاح؛ الشراشر الأثقال. الواحدة شرشرة يُقال: ألقى عليه شراشره حرصاً ومحبة. وفيه: العرارة شدة الحرب، واسمه للسودَد. (ع)

(٣) قوله «فطم على الكواكب» في الصحاح: الكوكب النجم، وكوكب الشيء معظمه، وكوكب الروضة نورها، والمعنى الأخير هو المراد هنا، والأول هو ما يأتي. (ع)

والصلاة [والسلام] على خير من أُوحيَ إليه حبيب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم؛ ذي اللواء المرفوع في بني لؤيّ، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصيّ؛ المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشادخ[1] الغرّة الواضح التحجيل، النبيّ الأميّ المكتوب في التوراة والإنجيل/؛ وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم: أنّ متن كلّ علم وعمود كل صناعة ـ طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافة قصيرة؛ وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل؛ حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عدّ ألف بواحد ـ ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمنّ عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم.

ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح[2]؛ من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها ـ علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم؛ كما ذكر الجاحظ في كتاب «نظم القرآن»، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ؛ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه ـ لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن؛ وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله؛ بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ؛ كثير المطالعات، طويل المراجعات؛ قد رجع زماناً ورجع إليه، وردّ وردّ عليه؛ فارساً في علم الإعراب، مقدّماً في حملة

---

(١) قوله: «الشادخ الغرة» في الصحاح: شدخت الغرة، إذا اتسعت. (ع)

(٢) قوله: «بما يبهر الألباب القوارح» في الصحاح: قرح الحافر، إذا انتهت أسنانه، وكل ذي حافر يقرح، وكل ذي خف يبزل. (ع)

الكتاب؛ وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها؛ يقظان النفس درّاكاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزّا جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض[1] بتلقيح بنات الفكر؛ قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه.

ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية[2] العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم/ بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب؛ واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملى عليهم «الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي؛ أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة؛ لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم؛ فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيول [والأذناب]، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها ـ وقليل ما هم ـ عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حرّاصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي وحرّك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس ـ أدام الله مجده ـ وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم ـ أعطش الناس كبداً وألهبهم حشى وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدّث نفسه ـ في مدّة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادّة ـ بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض؛ فقلت: قد

---

(١) قوله: «غير ريض» في الصحاح: ناقة ريض، أول ما ريضت وهي صعبة بعد. (ع)

(٢) قوله: «من أفاضل الفئة الناجية» هي التي سمّاها أهل السُّنة بالمعتزلة، فقوله: «إخواننا في الدين» يقتضي أنه من المعتزلة؛ ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول المعتزلة، فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبقاها على ظاهرها، وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم، عفى الله عنه. (ع)

ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السنّ، وتقعقع الشنّ، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر[1]، ووفق الله وسدّد ففرغ [منه] في مقدار مدّة خلافة أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه[2] ـ وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم؛ أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني، ونوراً [لي] على الصراط يسعى بين يدي وبيميني؛ ونعم المسئول.

---

(١) قوله: «والفحص عن السرائر» لعله «الشرائد» أو «الشدائد». (ع)

(٢) قوله: «ففرغ منه في مقدار خلافة أبي بكر الصديق ـ رضيَ اللّه عنه ـ: وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة» كانت مدة خلافة أبي بكر ـ رضيَ اللّه عنه ـ سنتين وثلاثة أشهر على الصواب، وكأنه لمح بذكر الثلاثين إلى حديث سفينة مرفوعاً «الخلافة بعدي ثلاثون سنة» أخرجه الترمذي وغيره. فكأنه قال يقدر تمامه في مدة الخلفاء الراشدين فيسره اللّه في قدر مدة أولهم وأفضلهم. وكانت أيضاً أقصر من مدة الثلاثة الذين بعده؛ لأن خلافة عمر رضيَ اللّه عنه كانت عشراً وأشهراً. وعثمان رضيَ اللّه عنه اثني عشرة سنة. وعلي رضيَ اللّه عنه خمس سنين إلا أشهراً. وقُتل علي رضيَ اللّه عنه بعد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بتسع وعشرين سنة ونصف، وأكمل النصف مدة الحسن بن علي رضيَ اللّه عنه، واللّه أعلم. أهـ من تخريج الأحاديث للحافظ ابن حجر.